

الحسين بن علي - كما رأيته في ثلاث سنوات -

كيف اعتلى ، ولماذا فشل ؟

من مشاهداتي بين شوال ١٣٣٤ - وشعبان ١٣٣٧

بمستروانك من جدة الى جدة ديلي كرونيكل يوم ١٣
ربيع الاول يقول : ان الحسين بن علي الذي كان يطعم في وسط
سلطانه من الخليج الفارسي الى البحر المتوسط ومن بغداد الى عدن
أصبح أوى الآن في جدة اي منزل مؤقت قدر حقير غير مستجمع
لوسائل الراحة . وقد نخلي منه كل أنيس ، سوى قليل من العبيد .
وهو يأبى أن يقابل أحداً

وقد تنفي أمس كتاباً من جميع وجهاء جدة بطلان أن يرحل
عن بلدهم في الماء . ولم يمر بعد على عمل لنفاه ، فقد رفضت بلدان
كثيرة أن يتنحي إليها

لولا موضع العبرة من هذا الحادث في تاريخ الامة العربية لما حرّكت القلم
لاعلان ما اختبرته بنفسى من أحوال ملك الحجاز السابق ، ودواعي قيامه ،
وحكمة الله تعالى في وصوله الى النتيجة التي اشار اليها مراسل ديلي كرونيكل ،
لأنني أردت منذ رجعت من الحجاز أن أختص التاريخ بما علمته عن الحركة
الحجازية ، والتاريخ يكتب عادة بعد انقضاء زمن حوادثه ، ليكون مجرداً من
تأثير العواطف عليه . وانما تشجعت على نشر هذا المقال بعد أن أحججت
لأن الدور الذي أحرم الآن حول ذكره أصبح في ذمة التاريخ ، والتاريخ
يستمد حكمه على الحوادث من مثل هذه المصادر بعد تمحيصها ومعارضة بعضها

ببعض

✽ الحسين بن علي قبل قيامه على الاتحاديين ✽

تولى الشريف حسين باشا إمارة مكة على أثر اعلان الدستور العثماني، وجاء من الاسنانة الى مكة وهو لا يقول بالقوانين الدستورية . وقد رسم لنفسه وهو في إمارة الحجاز خطة أساسية ، وهي أن يستعين بقوة الدولة العثمانية على خضد شوكة جيرانه أمراء الاقطار العربية الاخرى ، ولا سيما السيد الادريسي والامام ابن سعود ليقتع الاسنانة باخلاصه لها ، وليوسع نطاق إمارته بمصا الترك ، وليجعل لنفسه هيئة بين القبائل

ولاحث له مرة فرصة اختلاف المرحوم السيد الادريسي مع سليمان شفيق باشا قائد الترك في عسير والمتصرف في تلك المقاطعة ، وكان قد أدى هذا الاختلاف بينهما الى قتال انتهى بتغلب الادريسي على قوة الدولة ومحاصرتة سليمان شفيق باشا داخل مدينة (أبها) ، وكان الامام يحيى أيضاً قد حاصر الترك في (صنعاء) ، ولم يكن من اليسور للترك أن يصلوا الى أبها لأن الادريسي احتل جميع المراكز العسكرية بينها وبين الساحل . فعرض الشريف حسين باشا على الباب العالي أن يساعد الدولة على السيد الادريسي ، وطلب منها أن تمدّه بالمال والسلاح والرجال ، فأجابته الى ذلك ، وقاد حملة من الترك والعرب قاتل بها الادريسي ، وفك الحصار عن سليمان باشا ، وطالما قال لنا ولغيرنا : أنا قاتلت العرب بالعرب . . .

إن الاتحاديين لم يحفظوا للشريف حسين باشا هذا الجليل ، بل كانت لهم هم أيضاً خطة في الحجاز يترقبون الفرص لتنفيذها ، وهي أن يزيلوا إمارة الاشراف نهائياً ويجعلوا البلاد ولاية تدار بما يشبه إدارة المستعمرات . وقد كانت المكاتبات البريدية والبرقية دائرة في هذا الشأن عام ١٩١٣ - ١٩١٤ بين وهيب بك والي الحجاز وقائدها وبين وزيرى الحربية والداخلية في الاسنانة . وعندى نص

التعريف الذي أرسله وهيب بك إلى هاتين الوزارتين باللغة التركية يوم ٧
مارت سنة ١٣٣٠ (٢٠ مارس سنة ١٩١٤)^(١) وما جاء فيه « إن الشريف مقتنع
بعزمنا على إزالته عن مركزه عاجلاً أو آجلاً » . بل إن وهيب بك لما عزم على
الاجيء إلى المأجاز كان يجتمع بالشريف حيدر باشا والشريف جعفر باشا ابني
الشريف جابر بك ابن الشريف عبد المطلب (من ذوي زيد) وهو الذي سقط
أيام دخول الوهابيين إلى مكة قبل ١٢٠ سنة وانتقلت إمارة مكة بعد ذلك إلى
ذوي عون الذين منهم الحسين بن علي ، وقد استعان وهيب بك بآراء هذين
الشرفين ليقف على الطرق التي يتوصل بها إلى تحقيق الخطة الاتحادية في المأجاز .
وعندي نص كتاب مطول أرسله الشريف جعفر باشا من الاستانة إلى وهيب بك
في مكة باللغة التركية بهذا المعنى ، وقد نقلته من خط الشريف جعفر نفسه .
والظاهر أن وهيب بك كاد يُقنع الاستانة بأن الوقت حان لتجريد حملة على
الشريف حسين باشا فأخذه بغتة ، لولا أن محمود باشا جوروك صولي - صديق
الشريف حسين - استعمل كل نفوذه في اقناع الباب العالي بأن ضرر هذا العمل
يغلب على ما يرجى من فائده

وكان للشريف حسين جواسيس في إدارة البريد والبرق بمكة وفي دار
الحكومة تقف له على ما يرسمه وهيب بك من الخطط وما يكتب به إلى الاستانة ،
كما أن لوهيب بك مثل هؤلاء عند الشريف يأتونه بأخباره^(٢)

وما برح الشريف والاتحاديون يسيء كل منها ظنه بالآخر حتى أعلنت

(١) قلت هذا التعريف ومستندات أخرى كثيرة في هذا الباب من أمين اتندي وكيل
الاوراق وناظر الحرم الشريف بمكة . وهو من أفاضل الترك الواقفين على حقائق علاقات
الشريف حسين بالاتحاديين

(٢) ولما سافر وهيب بك إلى الاستانة بطريق جدة أرسل الشريف قوة من رجال القبائل
استولت على أمتته في الطريق وجاءته بما يحمله وهيب بك من الاوراق فرف منها أشياء
كثيرة كان يهيم معرفتها

الحرب ، وصارت الحجاز تابعة لقيادة الجيش الرابع في دمشق ، وقد نيّطت أمور ذلك الجيش بجمال باشا الذي أُمّاء الى الترك والى العرب معاً بالخطّة التي سار عليها في بلاد الشام ؛ فأيقن الشريف حسين باشا يومئذ أن الترك ماضون في تنفيذ خطتهم المرسومة لا محالة ، لذلك عزم على أن يسبقهم في المفاجأة ، فأعلن انتفاضه عليهم باسم العرب في الظاهر ، وهو أتما فعل ذلك لأجل كرسية في الحقيقة

﴿ الحسين بن علي والقومية العربية ﴾

القومية العربية — مثل كل قومية أخرى على وجه الأرض — لها مطمح يسمى المتورون من أبنائها بخطوات حكيمة للوصول اليه في وقته للمرهون ، ولا يبالون أن يكون ذلك بعد عشرات السنين أو أكثر من ذلك . ولا ريب ان من يقف على تفاصيل علمهم بحمد هم عليه سواء كان موافقاً لهم أو مخالفاً . ومن المسلم به أن لكل أمة حقها في الحياة ، والناطقة بالضاد من أجدر الأمم بأن يجددوا شباب حياتهم الاجتماعية ، لان في ذلك إحياء للحضارة الاسلامية ، ونهوضاً للشرق الاسلامي كله . وكان العرب العثمانيون يحسبون أن في الامكان تحقيق مطلبهم من التقدم والنهوض مع بقائهم عثمانيين ؛ ولكن الاتحاديين كانوا يسيئون الظن في كل حركة حيوية يبديها العرب أو الارنؤوط أو الكرد أو الشركس أو غيرهم ، فيصّبونها بالخيانة ، ويقمعونها بالقوة والارهاب

ومن سوء حظ القومية العربية أن الحوادث الطائشة جمّلت تسابق الخطوات الحكيمة التي كان يخطوها رجال النهضة العربية : فينهمم يعملون على ترقية شعوبهم بالمعارف والتهذيب ، ويحاولون تعريف بنى قومهم بالهم من الحقوق وبما عليهم من الواجبات ؛ فوجئوا بنشوب الحرب الكونية ، ثم بدخول تركيا فيها وكاتوا يرون المصلحة في أن تحف أمام دول أوروبا المتطاحنة وقفة المتفرج ، ثم جبهتهم

حركة العدوان من جمال باشا في سورية بما لم يسبق له نظير في حكومة مدنية ، ثم رأوا أنفسهم أمام أمر واقع بالحركة المجازية التي قامت باسم استقلال العرب ، فلم يكن لشبابهم بدٌّ من خوض غمارها ، حتى كان الضابط من ضباطهم يبلغه خبر هذه الحركة وهو يقاتل مع الترك في ميادين روسيا ، فيلجى الدعوة من وراء تلك الفياثى والقنار ، ويسير الشهر والشهرين قاصداً الحجاز ليعمل في تكوين بناء الاستقلال لقوميته

الحق أن الملك حسيناً لقي كل المواد التي تبنى الممالك بها من رجال وأموال وأحوال ، فأساء استعمال ذلك كله ، وأضاع الفرص السانحة له ، كما سنشير الى ذلك بعد

ان الناية التي قام الملك حسين لاجلها هي الاحتفاظ بالكروسي الذي كان مهدداً من الاتحاديين باسقاطه ، فلم يستطع ادراك المفزى العظيم الذي كان تاريخ القومية العربية والحضارة الاسلامية يهتف به للحسين بن علي

﴿ مزايا الملك حسين وعيوبه ﴾

للك الملك حسين من المزايا الكريمة ما يندر مثله في الرجال ، ولو لم تكن في جانبها صفات أخرى تذهب بأهميتها ، وتحول نفعها في بعض الاحيان الى ضرر ، لكان هو الرجل الذي ينشده العرب والاسلام في هذه الأيام

الملك حسين من أشجع الذين عرفتهم ومن أربطهم جأشاً . كانت القنابل التركية تنساقط على أركان دار الامارة من قلعة أجياد في العشرين يوماً الأخيرة من شهر شعبان سنة ١٣٣٤ فتقع القنبلة الى جانبه وهو يكتب أمراً من الأوامر وإمامه أحد الموظفين ، أو في أثناء صلاته خلف إمامه الشيخ ياسين بسيوني وعلى جانبيه سائر المصلين . فينفض كل من حوله عند نزول القنبلة وأما هو فيظل ثابتاً

كانما لم يقع في القصر شيء . ومن دلائل شجاعته بقاؤه في مكة في الحوادث الأخيرة أياماً كثيرة بينا الألوف من الاهالي يهاجرون منها الى جدة مع الخطر عليه هو من البقاء وليس على الاهالي من خطر

ومن مزاياه عزيمته الفولاذية ، وقد يلين الفولاذ ولا تلين له عزيمة . ولكن الشجاعة والعزيمة وسيلتان تحمدان اذا حمدت الغاية ، وتكونان آلتين ضاريتين اذا كانت الغاية غير محودة

ويمتاز الملك حسين بكائه النادر في فهم شئون الحجاز واستكشاف ضمائر المكيين حتى كأنه مع كل واحد منهم في خلواته وجلواته ، ولكن هذا الذكاء تضييع مزيته فيما يتعلق بشئون غير الحجاز ، لأن الحسين بن علي لا يحاول ان يفهم الشئون الخارجية على حقيقتها من ينايئها ، بل يريد ان يتلقاها بمقتضى عقليته هو ، وبحسب ما لها من الخيال في ذهنه

وهو ذو جلد عظيم على العمل : يستيقظ قبل شروق الشمس ويعمل الى وقت الغداء ، ثم ينام ساعة ويعود الى العمل حتى الساعة العاشرة ليلاً . ومن عادته في ليالى الصيف ان يمضي السهرة تحت السماء بلا سراج ، ويتحدث مع جلسائه في الظلام ، واذا احتاج الى قراءة شيء طلب الشمعة فقرأ على نورها ثم يعود الى الظلمة

وقبل ان تعرف السيارات في الحجاز كان يسافر بين مكة وجدة على بئلة له فيركب مساء ويسري الى الصباح فاذا وصل في الصباح الى إحدى المدينتين يبدأ بالعمل طول النهار كأنه كان نائماً في فراشه

ويتولى بنفسه كل أعمال الحكومة بتفريعاتها ، فهو مع موظفي الحرم في وظائفهم ومع الوزراء في أعمال وزاراتهم ومع رئيس البلدية فيما يقوم به ، والذين في جدة يستأذنونهم بواسطة التلفون في كل عمل ، حتى سائس خيله لا يمضي عملاً الا بمشورته

مباشرة . والذي يسهل عليه كل ذلك أنه لا يضع أمامه ورقة ولا تترامك عنده المسائل . فإذا استشاره مدير الشرطة أو وكيل الخارجية في مسألة يذكرها للملك شغافاً فيأمره بما يسنح له من رأى في تلك الدقيقة صواباً كان ذلك الرأى أو خطأ ، ولذلك لم يشعروا بالحاجة في تلك الحكومة الى اختصاصيين يرجع اليهم في الامور ، ولذلك أيضاً لم تتغير وزارة الحجاز منذ قامت حركة الحجاز ، لان الوزراء لا تتوجه عليهم مسئولية الأعمال وقد أمضوها برأيه . ومما تقدم يعرف القارىء كيف كان الوقت يتسع للملك حين في كتابة مقالات جريدة (القبلة)

والملك على غاية من البرقة واللفظ مع جلسائه - ولا سيما مع الاغراب منهم - فهو يبدى لهم منتهى الموافقة على ميولهم ، غير أنه يتقى نتائج ذلك بطريقتين : الاولى أن يبادرهم بسرعة خاطر عجيبة الى تحويل الحديث عن المجرى الذى لا يرتاح اليه ، ويستفيد مما له من هيبة المقام فيقطع كلام محدثه بالموافقة أولاً على ما يقوله ، ثم يكمل الملك الحديث بنير المجرى الاول . والطريقة الثانية الاغراق فى الحذر من الناس - ولا سيما الاغراب - الى درجة سوء الظن بلا قرينة تدعو الى ذلك . قال وهيب بك - الذى كان والي الحجاز وقائدها - فى تلغرافه الى وزارتي الحربية والداخلية بالاستانة فى ٧ مارت سنة ١٣٣٠ : « ان الامير يسئ الظن بالناس جميعاً ، ولا ثقة له حتى بأولاده ، ويبغض أهل الكفاءة والعفة والوطنية والشرف من الموظفين ، ويقرب اليه سفلة الناس وأدنياءهم . وان قنوته الاعظم هو عبد الحميد السلطان الخلع » . وأنا قد لاحظت هذا الامر من قبل ان أطلع على تلغراف وهيب بك وأظن الحكمة فى تقريره السفلة دون أهل العفة والشرف أن اولئك يتقادون له راضخين لما يملأه من زلاتهم ، وأما الآخرون فلا يسرون معه الا على الواضحة . ولما كان السيد مساعد الياقنى قائماً بشئون وكالة الخارجية مدة وجود الشيخ فؤاد معتمداً للحكومة الحجازية فى مصر

كان السيد مساعد يحاول ان يُلبس ما لا يُقبل من بلاغات الملك الى دار الاعتماد البريطانية في جدة نوباً معقولاً بحسن التعبير عنها بالتلفون أو بالمراسلات البريدية والبرقية . وبينما السيد مساعد كان يحسن الى الملك بعمله هذا كان الملك يرسل التلغرافات في الليل الى دار الاعتماد موقفاً عليها باسم السيد مساعد دون ان يعلم بذلك وفيها عبارات تسيء القوم ، فاذا عاتبوه في الصباح وجد نفسه في موقف حرج فلا هو يستطيع ان يقول ان التلغراف ارسل باسمه بدون علمه ، لان في ذلك فضيحة للحكومة التي يخدمها ؛ ولا هو يستطيع أن يتنصل من الاساءة بما لا داعي له ، لأن اسمه موقع على البرقية

﴿ الحركة الحجازية والسياسية العربية ﴾

من مظاهر التعارض بين الغاية الشخصية التي قام الملك الحسين لاجلها وبين الغاية القومية التي لبي رجال الامة العربية دعوة الملك الحسين لتحقيقها ان هؤلاء الرجال كانوا يرون وجوب المبادرة الى استعمال كل قوى الامة العربية لتكوين الدولة الجديدة ، انجازاً لامنيتهم الجنسية أولاً واحتفاظاً بهيبتهم في نظر حلفائهم ثانياً ، وامتناعاً بهذه القوة مما قد يطرأ من الطوارئ أخيراً . فحاولوا أن يقتنوا الملك حسيناً بكل طرق الاقتناع أن يسمح لهم بالسعى لدى امراء العرب - الامام ابن سعود والامام يحيى والسيد الادريسي - لتأسيس روابط بين الجميع اساسها بقاء كل واحد منهم مستقلاً في شئونه الداخلية واشتراكهم جميعاً في الشؤون العامة بزعامة الحجاز . حتى ان الاستاذ الشيخ محمد كامل القصاب قال له أُمامي : أنا مستعد ان اسافر في هذه الليلة الى الامام ابن سعود ثم الى الادريسي فالامام يحيى ، واذا كان يصعب على جلالته ان يفهم الامراء أنني قادم من مكة فاني مستعد لان اسافر الى مصر وألبث فيها مدة ثم أتوجه اليهم ، وحسي ان تكون أنت موافقاً على الخطة الاساسية عند ما يظهر لك أنها ممكنة التحقيق . فكان الملك

حسين يمنعه كل المنع من المضي في هذا العمل ، ويقسم بالله أنه لا يسير فيه خطوة واحدة . وسنحت له فرصة لم يسبق لها مثيل وهي ان آل سعود بعد امتناعهم عن اداء فريضة الحج أكثر من مائة سنة لان الترك كانوا لا يزالون يجاهرونهم بالعداء وأوجدوا لهم عدوا من أتباعهم وهو ابن الرشيد فاغروه بالانتقاض عليهم وساعدوه على استلاب ملكهم . فلما قامت حركة الحجاز باسم العرب - ظاهراً - حضر شقيق الامام عبد العزيز بن سعود الى الحج ومعه عشرات الالوف من النجديين ، وكان حج تلك السنة حجاً عربياً اشتركت فيه نجد والسير واليمن . فأما شقيق ابن سعود فكان موضع الاكرام في الظاهر مع الاغراق في الخذر منه واساءة الظن به في الباطن بما لا يخفى على القوم وذكاؤهم مشهور ، وأما جماعة الامام يحيى فقد حاول رجال الشريف في منى ان ينتزعوا منهم علمهم فدافع حامل العلم عن علمه بسلاحه وكادت تقع فتنة ، وأما جماعة عسير فسمعوا من الكلام المؤذى شيئاً كثيراً . وبعد ذلك بمدة قبض الملك حسين على ناس من جماعة ابن سعود وسجنهم بدعوى أنهم يبيعون الابل للترك ، فكتب له ابن سعود ينفي هذا الامر ويشفع بهم فرمى بكتابه أمام رسله ثم أراد ان يتلافى هذه الغلطة ولكن السهم كان قد صدر عن القوس . ومع ذلك فانه ما برح يسب الوهابيين في (القبلة) بما يخرج صدر أحلم الرجال

وقلنا له - وكان باب سورية لا يزال موصداً - : اننا قادمون على دخول سورية ، ولا بد لنا من التفاهم مع أهلها ولا سيما المعارضين منهم واكثرهم في مصر وأمريكا . فينبغي ايضاً وفد الى مصر للوقوف على كل ما يطلبه أعيان السوريين فيها وارسال وفد الى امريكا من مثل الدكتور شهندي ليفعل مثل ذلك مع زعماء المهاجرين فيها . فلم يمر هذا الاقتراح ايضاً شيئاً من الاهمية

﴿الملك حسين والشريعة والقانون والمعاهدات﴾

الملك حسين متدين حقاً ، واذا رأى أمراً فيه مأس بالشرع يغضب له كما يغضب وارث منزل إذا رأى أحداً يلحق بالأذى بذلك المنزل . ولكن بما يؤسف له انه يعتقد في نفسه انه أسرع الناس ادراكاً لحكمة الشرع ومعرفة بأسراره ، باعتبار أنه رب الدار فهو أعرف من غيره بما فيها ، وقد يجره هذا الى انكار قول أكبر المفسرين في تفسير آية من الآيات ثم هو يفسرها بما يخالف قوانين العربية ، بل بما يخالف المعاني اللغوية . أراد مرة ان يشنع على الوهاية فاتهمهم باطلاً باتهم يهينون النبي صلى الله عليه وسلم . وكأن هذا الامر اذا صح يحتاج الى نص من الشرع على قبحه فأراد ان يستدل بآية من القرآن على عظم منزلة الرسول من ربه فأورد آية « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عِيتُمْ » ولكنه وقف عند قوله « عزيز عليه » وأرجع ضمير « عليه » الى المولى سبحانه وتعالى وجعل معنى « عزيز » أنه ذو مكانة عظيمة عند الله ! هذا مبلغ فهمه للكتاب والسنة ، ثم هو يزعم ان بلاده لا تعمل بالقانون بل تعمل بالشرع ، وهي وبالأسف لم تحصل على هذا ولا على هذا ، والواقع ان القانون المستمد من روح العدل - كما هو الغالب فيه - لا يمنع الشرع العمل به اذا لم يصادم نصاً صريحاً من نصوصه

ومثل فهمه للشريعة فهمه للمعاهدات ، ولذلك احتفل منذ نحو سنتين بالمعاهدة الانجليزية لأنه فهم من ظواهرها انها تتضمن الاعتراف بالاستقلال للبلاد العربية ، فلما انتقدتها جريدة الاهرام ثم اطلع الفلسطينيون على نصها فانكروها كل الانكار عاد فامتنع من التوقيع عليها . ومن هذا القبيل المراسلات التي دارت بينه وبين الانكليز قبل قيامه : فانه حسبها معاهدات تضمن حقوق العرب ولم يفهم مطاويها ولم يُطالع عليها أحداً حتى ولا أبناءه ، وكان يقول لهم

دائماً : ان عهودهم لي يجيى . وكان يهزأ من الذى قال له : لو اقترحت على الانكليز أن يعرضوا المعاهدة على البرلمان ليصادق عليها . وانما هزأ منه لأنه يرى أن رجال البرلمان اشخاص من الشعب - مثل مجلس الشيوخ الذى أسسه هو بمكة - وأما الذين كاتبوه وتعهدوا له فهم رجال الدولة

﴿ لو كان دستوريا ﴾

لو كان الملك حسين دستورياً ، والحركة التى قامت من الحجاز يوسد كل عمل من أعمالها الى رجال الكفاءة والاختبار ، ولو أطلقت أيدي الذين أرادوا اصلاح المعارف ، وتكوين الجيش ، وتوحيد قوى الأمة العربية ، ولو كان التصرف بالاموال التى مرت بأيدي الملك حسين وأولاده تصرفاً حكماً ، لكان للمسلمين الآن دولة عربية مستقلة عزيزة الجانب ذات قوة وبأس نسير بخطوات واسعة نحو تجديد الحضارة الاسلامية وتجهيزها بمعدات الكمال . فهل يقوم للعرب والاسلام فى مهد العرب والاسلام من يجدد لها شبابها ؟
اشتدي أزمة تنفجى

﴿ عطيل ﴾

رأيت بعضهم ينكر على خليل بك مطران ارجاعه اسم (اونتلو) ، بطل رواية شكسبير المعروفة ، الى لفظ (عطيل) وعدوا ذلك بحجارة منه لمن عرب هذه الرواية قبله ، وهم يزعمون أن ذلك ليس من اسماء العرب . وينفي قولهم هذا أن العرب كانت تسمي ابناءها باسم (عطيل) فضلاً عن مواليها ، حتى أن فى القرب من جبل (الأشعر) بالحجاز بئراً تدعى (بئر عطيل) سميت باسم (عطيل المليحي) المنسوب الى مليح وهو بطن من قبيلة الربعة من بنى جهنية (أنظر مادة الأشعر » فى معجم ما استعجم للبكري طبعة وستنفلد فى غوتنجن سنة ١٨٧٦)